الاستاذ محمد قاسم قديح

التراث والآثارالعمرانيين حلقة وصل بين الماضي وذاكرة الحاضر

البيوت القديمة فن معماري غني بالجماليات والدلائل ، وهو شاهد على عراقة الماضي وأصالته، وعلى الذكاء النظري في بناء تلك البيوت . وهذا الفن يعتبر واحداً من أبرز الفنون العمرانية ، وهو نوع من التعبير عن ثقافة المجتمع ، و معتقداته الدينية . فهو يعطي لمسة جمالية في الروعة تعود للفترات التي بدأ فيها الإنسان بالبحث عن طرق لبناء ملجأ ومأوى له .

هذه البيوت فيها تراث الماضي وتاريخه ، وعبق الحاضر وأصالته ، وهي تشكل فارقاً بين التراث والحداثة ، وصراعاً بين ثقافتين : ثقافة الآباء والأجداد المرتبطة بالتراث ، وثقافة الأبناء العصرية (والكبار دائماً يتشبثون بما هو قديم ويعتبرون المنزل القديم رمزاً للخير ، وهو ما يسمونه عتبة الخير).

كانت الغاية من بناء المساكن طلب الأمان سواء من أخطار بيئية أو حيوية، لذا فهي مثال أساسي للسكن وللمأوى . ويختلف طرازها بشكل كبير من بلد إلى آخر ، ويتغير نمط بنائها بمرور الزمن وما زال كل ذلك يحمل ثقافة الجمال وثقافة الحداثة والتراث .

هذا و تعتبر بيوت الطين والحجر احدى فنون العمارة القديمة التي تعكس التطور الحضاري للشعوب في الزمن القديم ، وتعبِّر عن تطور حاجة الإنسان في كل زمان ومكان إلى مأوى ، تلك البيوت المتلاصقة بنيت على الأرض لترسم بعض معالمها بتجانس بهيج ، لم ترهق كاهل أصحابها في بنائها ، كما لم تثقل وجه الأرض بحفرها ، ودق أسياخ الحديد ، وصب كتل الاسمنت فيها . بل كانت تعتمد في بنائها على الحجر القديم ذي اللون الأحمر مع استخدام الطين المضاف اليه القش ، والقش مادة تستخرج من حصاد القمح أو الشعير، يتم طحنها وخلطها مع الطين لزيادة متانة البناء وتماسكه . إضافة الى استخدام جسور من الخشب وأعواد القصب التي تساعد في دعم سقف البناء ، ومن ثمَّ يتم وضع الطين المملوء بالتبن عليه. وتتميز هذه البيوت بالدفء في فصل الشتاء والبرودة أثناء فصل الصيف (تتكيف مع البرودة والحرارة).

تلك المساحات الطينية الصلبة اتسعت لأصحابها في ذلك الوقت على الرغم من صغر مساحتها، وكثرة عدد الأفراد القاطنين فيها . خلافاً لبيوتنا الآن والتي ضاقت بنا ذرعاً رغم اتساعها ، لذلك من يرى تلك البيوت

يحن للعراقة ، ويأنس للماضي الجميل، ويستعيد شريط ذاكرته ، ويقف أمام منجزات الأجداد متأملاً الإبداع . إبداع البناء على شكل عقود وأقواس وقناطر على الطراز الروماني.

تميزت هذه البيوت بإرتفاع سقفها من الداخل ، اضافة الى أن ابوابها وشبابيكها بنيت على شكل أقواس، وذلك للتخفيف من الضغط عليها بسبب عدم استخدام الحديد في ذلك الوقت لإنجاز البناء.

هذا الإبداع هذه الشبابيك ، التي تمثل جزءاً رئيسياً من تكوين المنزل القديم ، وتختلف من بناء الى بناء ، جاء عبارة عن اطار خارجي بشكل مستطيل فيه مجموعة من القضبان الحديدية أو النحاسية تمتد من الأعلى الى الأسفل ، وتمر عبر أعمدة جانبية في الإطار، ويختلف عددها بحسب طول الشباك ،ولها أيضاً ماسكة لتثبت القضبان تسمى لؤلؤة .

بعض الشبابيك تم صنعها من الواح خشبية متصلة مع بعضها البعض ، وضع عليها شباك حديدي لحمايتها، ويتم التحكم بفتح رفيع خفيف الوزن .

يتكون البيت غالباً من غرفة واحدة ، أو غرفتين وساحة واسعة ، يوجد فيها حظيرة استخدمت قديماً لتربية الماشية والطيور والدجاج البلدي ،وكانت منافع الخدمة الصحية تقع خارج البيت .

وفي الجدران الخارجية طواقٍ لتربية الحمام ، وفي الطرف البعيد من الغرف مكان خاص لصنع خبز المرقوق. الذي استخدمه البعض .(الطابون وهو عبارة عن فرن من الطين يشبه الفخار في صلابته ، حيث تستخدم فيه الحلة ، وهي من مخلفات الحيوانات ويتم اشعالها فيه ليلاً وفي الصباح يكون قد اكتسب درجة حرارة عالية حيث يتم تنظيفه ومن ثم يخبز فيه).

تحتوي معظم البيوت أيضاً على بئر ماء، يتم بناؤه داخل الساحة الخارجية للبيت ، ويتم تجميع الأمطار فيه ، عن طريق قناة موصولة بالبئر .

كذلك هناك أنواع أخرى من البناء تسمى العليَّة . العليَّة بناء من طابقين ، الطابق الأول وهو العليَّة عبارة عن غرفتين وفي أسفل الغرفتين بناء وهو عبارة عن حظيرة لتربية الأغنام والماشية . بناء العليَّة يعتمد على توافر جسور الخشب الكبيرة ، اضافة الى القصب في السقف لإعطاء منظر جمالي للبيت . وبعد الإنتهاء من عملية البناء ، تبدأ المرحلة الثانية وهي التبيض ، ويتم ذلك باستخدام نوع الحجارة والصخور الطرية ذات اللون الأبيض ومن ثم طحنها على حجارة الصوان ونقعها بالماء لفترة لا تطول كثيراً ومن ثم استخدامها في دهن البيت .

ينجز البناء القديم باستخدام حجارة ذات حجم كبير، باعتبار ان سماكة عرض الجدار يزيد عن المتر، وتحيط بهذه البيوت القديمة اسوار من الحجر والطين ولها مداخل على أشكال اقواس وقناطر اضافة الى وجود مضافة خارجية .

وفي هذه الغرف فتحات صغيرة ومنها متوسطة تستخدم لحفظ المواد الغذائية التي تمَّ صناعتها يدوياً وتكون مخزوناً لفصل الشتاء ومنها اللبن واللبنة والجبنة والسمن والزعتر والكشك والقاورما وأيضاً الخبز ... ومن الفتحات الصغيرة لحفظ النقود التي يحصل عليها المزارع من غلة الصيف بعد فترة الحصاد . انها قسم من أقسام البيت القديم وفيها محتوياته .

المطواة : مكان يحدد في زاوية غرفة من الغرف ، يتم فيه ترتيب الفرش واللحف التي تصنع من الصوف ، أو بعض القطن المستورد من المدينة ، وكذلك البسط التي تستخدم لفرش أرض الغرف خاصة في فصل الشتاء والتي كانت تصنع من شعر الماعز .

الخابية : جرة تستخدم لحفظ الماء ومكانها في زاوية البيت لا فرق ان كانت في الداخل أو الخارج، ويتم تثبيتها على ارتفاع من سطح الأرض وتستخدم اضافة الى الشرب للأغراض المنزلية ومنها الطبخ وصناعة العجين وغيرها ...

تميزت الحياة القديمة بالبساطة ، فكان كبار السن من أهل القرية وخاصة الجيران يسهرون بالسهر كل يوم في منزل أحدهم ، ويعرف هذا المكان (التعليلة) ويستخدم أثناء السهرة السراج للإنارة وهو عبارة عن قارورة لها أداة حديدية تسمى الجرس ويوضع فيها قطعة خاصة من القطن، ويوضع عليها البنورة وهي زجاجة شفافة تساعد على اعطاء انارة أوضح . كما تساعد النسوة بعضهن البعض في ترميم المنازل في نهاية فصل الصيف استعداداً لإستقبال الشتاء .

أما الأهالي سكان هذه البيوت فقد تميزوا بتنوع أعمالهم : فرقة منهم تذهب الى البيادر حيث يتم تجميع المحاصيل الزراعية من قمح وشعير وكرسنة وذرة وغيرها ... لدرسها وفصل الحبوب وذلك باستخدام الدواب من خيول وبقر، تجر لوحاً يدعى النورج ، وهو قطعة من الخشب الصلب ، يوضع في أسفلها حجارة بركانية سوداء صلبة لتسهيل عملية درس الحبوب . وبعد الإنتهاء من عملية الدرس يتم فصل الحبوب عن القش (التبن) باستخدام المذراة وهي أداة خشبية لها كف ومجموعة من الأصابع تشبه اليد البشرية ، وبعدها يتم وضع الحبوب في آبار تشبه ابار المياه .

وعلى صعيد العلاقة بين الإنسان ومسكنه فهي علاقة حميمة ،جسدتها روابط المودة المميزة، انبثقت عن طول فترة الإقامة ، وسحر المكان ، وروعة الذكريات، وصفاء العلاقات الإجتماعية التي ارتكزت في أساسها على البساطة والتعاون في الأمور التي تهم الحي أو القرية .

الإنسان طوال عمره وفي كافة مراحل حياته، رغم ما يصاحبها من تغيرات في نمط الحياة وظروفها ، والإننتقال من مكان الى مكان آخر يسعى الى ، هذه العلاقة التي تستمر عادة من الأبناء للأحفاد .

يحرص النمط التقليدي للأسر على بناء المنازل بشكل مرن وقادر على التكيف والتوسع في بعض الأحيان ، الأمر الذي يسمح للإبن عند اقدامه على الزواج بإضافة غرفة واحدة الى المسكن الأصلي وهكذا يتم لمّ شمل الأسرة في هذه البيوت التي أصبحت الممتدة التي تجمع أكثر من جيل (الجد والجدة الأب والأم والأحفاد.)

للبيوت القديمة ذكريات وتاريخ وأحداث وتراث ليس من السهل نسيانه ، إذ كانت طبيعة الحياة فيها وتميزها بالطابع المعماري المتشابه . وقد تركت لكل جيل من هذه الأجيال ذكرياته المتعلقة في فترة طفولته . كما ان طبيعة العلاقات السائدة بين أفراد القرية سواء من الأقارب او غير الأقارب تعبر عن التلاحم والتعاون في كل ما يهمهم من شؤون. فكان للجار احترامه واعتباراته ، وكانت العلاقة بين الجيران مثال التفاخرلأنها تشكل أبرز العلاقات الإجتماعية ودائماً الجار هو الأقرب بالمودة .

إذ تميز سكان المنازل القديمة بـ : حسن علاقة الجيرة والقرابة والتكاتف والتعاضد والتسامح والمحبة فكان التعاون في البناء و في قطف ثمار الأشجار وزراعة التبغ والمشاركة في المناسبات الدينية والإجتماعية وحل المشكلات بطرق ودية . وهذه العلاقات نمت وترعرعت و بقيت عامرة بالحياة والبهجة والسرور ، تفوح بالذكريات الجميلة ، والحكايات التي لا تنسى، وخاصة إنها عندماشُيدت تمَّ بناؤها بمشقة كبيرة وجهد متواصل وتعاون كامل من قبل أهل القرية عامة والجيران خاصة . لا يمكن التفريط بها عند الكثيرين .لأنه في المجتمعات القروية يعتبر بيع الأراضي والمنازل غير مقبول إلا إذا كان هناك اسباب مقنعة ومنطقية للبيع ومنها (التعليم والطبابة أو الاستشفاء).

وننتقل الى التراث في هذه الحقبة التاريخية للبيوت القديمة الذي يمثل نتاج الحضارة في ميادين النشاط الإنساني المختلفة، من علم وفكر وأدب وفن ومأثورات شعبية . وكذلك التراث الإجتماعي والإقتصادي ، وهذا التراث سجله أجدادنا وأباؤنا ، وتناقلته الأجيال من بعدهم، وكان التراث المعماري انذاك يتمثل بالمساجد والحصون والبيوت القديمة ، أما التراث الشعبي فيتمثل في الرقصات الشعبية والأناشيد والأمثال

الشعبية والحكايات .والتراث الإجتماعي والإقتصادي فهو ما يعرف أيضا بالعادات التي كان يعيشها أجدادنا واباؤنا ، والتي تعتمد في أساسها على البساطة في أنواع الملابس والأطعمة التي سادت في ذلك الوقت، وطرق كسبهم للعيش....

اما الآثار فهي أي شيء منقول او غير منقول انشأه أو صنعه أو نقشه أو بناه أو اكتشفه الإنسان، ثم مضى عليه فترة من الزمن ، وترك بقصد او غير قصد ... وتشمل هذه الآثار بعض مخلفات الحضارات القديمة أظهرتها الكتابات التي تحمل دلالات ومعانٍ مختلفة .

تشكل هذه الآثار رافداً مهماً في اغناء معرفتنا عن المجتمعات القديمة التي تركت سجلات مكتوبة تعتير ذاكرة التاريخ الحية وحلقة الوصل بين الماضي والحاضر . وقد قيل في هذا الشأن التاريخ هو ذاكرة الأمة ، والتراث روحها .

الأمس ما زال يضج ، فتسترجع الذاكرة ما التقطته العين ، وما سمعته الأذن وما رصدته من مدونات ومرويات في سهرات ضوء قمر ، قبل أن يمر قطار العمر السريع ، ويسرق السهر والقمر والمرويات ... عندما تلمح عيني بيتاً طبيعياً من هذه البيوت أو صورة له تأخذني الدروب الى حيث الذكريات التي تثير الشجن ، وقد تثير الحزن ، وتعود بي الى الماضي الذي أرفض ونرفض جميعاً نسيانه بل يبقى في الذاكرة بصورته التي ما زالت باقية فينا والتي ما زال أصحابها معنا في قلوبنا وأرواحنا ووجداننا.

نحو منزل أجدادي ، المنزل التراثي المبني وفق نموذج البناء القديم من مواد طبيعية . حيث لهذا المنزل حكاية ولا في ألف ليلة وليلة . ففي كل زاوية منه ذكرى لمن سكنه وأقام فيه سنوات أو ساعات، ولكل مكان فيه وظيفة و عمل اتقنه المقيمون فيه منذ عقود، بتمثل هؤلاءالجد والجدة الخال والخالة العم والعمة الوالد والوالدة , ووأكثر ما يشدني تلك اللوازم التي علقت على جدرانه الحجرية ووظفت لتأمين متطلبات الحياة .

نموذج بيت قديم

تأخذني الدروب نحو هذا البيت القديم .. بيت واسع يغفو في حضن الروح ، أطرقُ الباب وأنا أعلم أن ليسَ فيه أحد .. أفتحهُ .. تواجهني روائح الطفولة ، ما أعذبها .، البيت الذي ولدتُ فيه .. أول مكان أدخلهُ غرفة جدي .. أنظر من خلال النافذة .. البيت ساكن بكل شيء .. أهله وناسه والعالم حوله والسماء أيضاً .. شجرة التين هادئة تغرقها أشعة الشمس الذهبية .. فهي في الحديقة منذ وعيت الحياة ، للمكان عبق سحري في قلبي ونفسي .. كم من الأشياء استيقظت في داخلي ؟! .. الكل غادر البيت .. لم يبقَ فيه غير الأشجار .. شجرة التوت التي زرعتها أمي يوم ولدت .. كلانا كبر .. تشع ببريقها .. أصغي إلى أصوات الطيور والعصافير التي عششت أمتع سمعي بها .. يمتلئ المكان بغنائها .. أسترق السمع من جديد وأتلذذ .. شعرتُ بالفخر وغمرتني السعادة .. فشجرتي غدت كبيره كما أنا . أخرج إلى الفناء ..

أنظر من خلال السياج إلى بيت الجيران .. ليسوا هم ! .. فهناك آخرون يسكنون الدار ، لا أعرفهم .. رمقتُ كل ما هو موجود بنظرة شرود .. وتوقفت عند الشجرة التي جلسنا أنا ورفاقي تحت ظلها .. هناك على تلك الأرجوحة تحت شجرة الخوخ ، ورغم أن هذا المشهد أمسى بعيداً إلاّ أني ما زلتُ أتذكرهُ بوضوح .. وكأنهُ حصل الآن .. تذكرتُ في تلك اللحظة كل الأشياء .. تجمعت فيها بدفعة واحدة كالبؤرة : لعب ، طموح ، أمل، بساطة وعفوية...

هذا هو الزمن يركض بنا ، اللحظات تهرب وكأنها لم تعد في قبضتنا .. انه يلتهم تلك الأيام الرائعة .. لكن شذاها مازال يحيا في الذاكرة

تركت البيت القديم .. سألت عن كل مَن كان معنا حينها .. الكل غادر و .. .. .. و .. .. .. القائمة تطول .. تركوا الأرض وغادروا .. حتى دون كلمات وداع ! وبقيت الأفياء الوارفة تظلل المكان كله .. وأنا في الخارج رفعت نظري نحو السماء .. القمم تخترق مسيرة السحب الممتدة .. تحيط بي صور بانورامية مدهشة .. أسمع همس الطبيعة .. تراتيل منغمة كدعاء أُم .. أستنشق الهواء بتلذذ .. نما في داخلي خشوع عميق .. خشوع نبع من أعماق ذاتي .. تآلف بسرعة مع جمال ورونق وجلال الذكرى .. وأسأل نفسي:

أين تلك البركة الممتلئة بالمياه الصافية ، وأسمع دندنة المياه التي تنزل من الحنفية كأنها سيمفونية ساحرة و يأخذني الفكر نحو البعيد .. كم من الزوارق الورقية صنعناها من دفاترنا المدرسية .. وتركناها تبحر في البركة مع احلامنا الصبيانية السكون تكامل تماماً .. والظلام بدأ يتكاثف بسرعة .. لم تعد عيناي ترى غير أقرب الأشياء .. دائماً نزور الذكرى ، نحج إليها .. كمن يبحث عن الحب في ماضٍ لن يعود !

ننبش في رماد الذكريات عن بعض الجمر لتنبض الحياة فينا من جديد ، نركض وراء التراث ..

بيوت العز والطهارة...بيوت النفوس الطيبة والكريمة...أين نحن منها في هذه الأيام.